معنى التراث وسؤال الهوية

بقلم أ . د . سعيد توفيق-جامعة الامارات :

ليس من قبيل الصدفة أن تناول موضوع التراث في طرحنا لسؤال أو مسألة الهوية، ذلك أن مفهوم التراث مقترن دائما بمفهوم الهوية بحيث يمكننا القول إن هناك علاقة ماهوية بينهما لا سبيل إلى إنكارها، أعني أن هناك ارتباط وثيق بين معنى كل منهما.. ولكن السؤال الضروري الذي نحاول الإجابة عنه هو: على أي نحو نفهم -أو ينبغي لنا أن نفهم- طبيعة تلك العلاقة الماهوية بين المفهومين؟

ذلك هو السؤال. وهو سؤال يتطلب منا أن نبحث في المعاني أولا، إذ لا يمكن أن نفهم العلاقة الماهوية بين مفهومين إلا إذا فهمنا أولا معنى أو ماهية كل منها.. إن مثل هذا البحث في المعاني هو المهمة الأولى والحقيقة للفلسفة.. فالفلسفة -كما أفهمها- في بحث في المعاني والمفاهيم التي يتركها العلم- بما في ذلك بلا توضيح، أو على الأقل يفترضها دون تمحيص وتحليل..

ومثل هذا البحث في المعاني ليس مجرد ضرورة معرفية أو ثقافية بالنسبة لنا كعرب ننتمي إلى سياق حضارة إسلامية، بل يكاد يكون مطلبا وجوديا حتميا في حياتنا الراهنة.. إذ أن احدى المشكلات الاساسية التي تعوق أية امكانية لتجاوز وضعنا التاريخي أو أزمتنا الحضارية الراهنة إنما تكمن في ذهنيتنا، أعني في تصورنا للمفاهيم الكبرى التي تشكل وعينا التاريخي والديني والعلمي والجمالي، ذلك اذا كنا نؤمن حقا بأن التحولات الحضارية هي نتاج لتحولات في الوعي يسهم في بنائه فهمنا للمفاهيم التي تشكل اسلوب حياتنا ونظرتنا لوضعنا التاريخي ولمستقبلنا وعلاقتنا بالآخر، من قبيل التراث، الهوية، الدين، العلم.. إلخ. وأكاد أجزم أن هذا الفهم ضائع أو على الأقل مشوش ومغلوط إذا كنا نتحدث على مستوى الوعي الثقافي السائد.

وربما يمكن القول أن هذا التشويش ...

ولنتوقف الآن عن أي احكام، وندخل مباشرة في موضوعنا: أن نحاول الاقتراب من معنى التراث ومعنى الهوية، لنقف على العلاقة بينهما.

ما التراث؟

يمكننا الاقتراب من معنى التراث من خلال التعريف بالاستبعاد، أعني أن الاجابة عن هذا السؤال تقتضي استبعاد كثير من التصورات الخاطئة التي تشيع في مستوى الفهم العامي للتراث: وأول هذه الأخطاء هو تحديد التراث في مستوى الموروث المادي الذي تركه لنا آباؤنا، سواء تمثل هذا الموروث في الآثار أو الأثريات أو حتى في النص المدون في زمن معين من الماضي. وحتى التراث المادي -الذي يفضل أن يسميه المؤرخون بالآثار- ليس شيئا ماديا خالصا، وإنما هو مفهوم بالدلالات الروحية الخصبة وإن غابت عند من يتلقونها من الاسلاف، فضلا عن كونه أرحب كثيرا مما يفهمه المؤرخون بالآثار، ...

فالتراث ليس هو كل الماضي، لأنه هو فقط الماضي الذي انتقل وآل الينا ليحيا بنا وفينا.. وهو ليس لحظة معينة من الماضي، لأنه نتاج للحظات تاريخية تراكمية تتفاعل وتتشكل من خلالها كل مضامين التراث.. وبهذا المعنى فإن التراث هو عملية انتقال وليس لحظة استاتيكية منغلقة على ذاتها.. وهذا المعنى يتضح حتى في دلالة الألفاظ المرتبطة بكلمة التراث أو المشتقة منها: فكلمة Tradition التي تعني أحيانا «التراث» مثلما تعني «التقليد» تدل على عملية انتقال التعاليم الثقافية والفنائية عبر الماضي من جيل الى جيل في شيء ويعتد بها في الحاضر.. وكلمة «الوراثة» اصطلاح يدل على ذلك العلم الذي يبحث في انتقال صفات الكائن الحي من جيل الى آخر.

ومن هذا يمكن أن نخلص الى فهم التراث باعتباره عملية انتقال لموروثات أو مضامين التراث، ومن ثم باعتباره متصل الموروث الثقافي والحضاري الذي يسهم بشكل فعال في تشكيل هوية الأمة.. وهنا ينبغي أن نحتاط بحيث لا نفهم من هذا أن التراث يكون مرادفا للهوية، لأن الهوية ليست شيئا جاهزا أو مصنوعا من قبل، وهي لا تكمن فحسب فيما تحمله من متصل الماضي الموروث، وإنما أيضا فيما نصنعه ونبدعه في حاضرنا، وفيما نتطلع اليه في مستقبلنا. فالحاضر والمستقبل مفترضان دائما الى جانب الماضي في مسألة صنع وتشكيل الهوية. وعلى الرغم من هذا التحفظ، فإن المقولة الأساسية التي بدأنا بها تظل صحيحة وسارية المفعول، وهي أن التراث يظل عاملا أساسيا (وإن لم يكن الوحيد) يسهم بشكل فعال في تشكيل هوية الامة من خلال عملية انتقال متصل الموروث الثقافي. وهذا الأسلوب الذي وفقا له يعمل التراث على تشكيل شخصية الأمة يمكن أن يتضح لنا حينما نشبهه بالأسلوب الذي تتشكل وفقا له شخصية الفرد.. فما يحدث هنا على مستوى الأمة يشبه تماما ما يحدث على ...

شخصيته الحقيقية التي تتحول الى مجرد مخزون أو رصيد غير موظف أو فعال.. ولقد صادفت الحضارة العربية الإسلامية نفس المأزق والآن نفس التحدي بفعل الغزو الاستعماري بدءا من الحروب الصليبية وانتهاء بما يسمى بالغزو الثقافي، وهي تواجه الآن نفس التحدي بصورة أكثر ضراوة في عصرنا الراهن.. عصر العولمة.. غير أنه من الضروري أن نلاحظ أن مثل هذا التحدي الخارجي ليس هو العنصر المسؤول أو العامل الوحيد الذي يهدد بانقطاع أو توقف التراث، بل إن الأمر مرهون باستجابتنا أو موقفنا إزاء ذلك التهديد، وهي استجابة يمكن أن تتخذ في صورتين متطرفتين ينبغي استبعادهما.. استجابة تتوجه نحو فهم التراث باعتباره لحظة تاريخية منقطعة عن الماضي يمكن أن نستدعيها ونعيش فيها منعزلين عن الحاضر والمستقبل، أو استجابة تقطع حاضرنا بماضينا وتسعى الى تبني نموذج حضاري آخر مغاير لذاتيتنا ولم نسهم في صنعه.

وفي كلتا الحالتين يكون هناك عزل للتراث وتجميده باعتباره لحظة منفصلة عنا (عن واقعنا المعاش). وكلتا الحالتين تؤديان إلى طمس الهوية.. إن هاتين الاستجابتين يمكن أن نلحظ بعض مظاهرهما حتى في مسلك بعض الشباب في جامعاتنا. وأنا في ذهني هنا الجامعة المصرية.. فنحن نلاحظ بعض الشباب من المنتمين إلى تيار فكري أو ديني سلفي يقومون بالتظاهرات التي يرفعون فيها شعارات سلفية تريد أن تستدعي لحظة معينة من الماضي وتبقي عليها في مظاهرها الشكلية. وعلى الطرف المقابل نجد شبابا يرقب المشهد مستغربا أو مستغربا يتعاطى وجبات ماكدونالدز ويرتدي الجينز وينظر إلى المتظاهرين باعتبارهم نوع آخر من البشر.. ونفس هاتين الاستجابتين نلحظهما حتى في الاختلاف الشديد في الذوق الفني بين بعض الشباب والأجيال السابقة ...

يكن مفهوما به، حتى وإن لم يتداوله على مستوى البحث والنظر الجاد. ولا شك أن طرح هذا السؤال في ثقافتنا يفترض دائما مسألة التراث.. فالتراث -كما قلنا- هو متصل الموروث الثقافي الذي يسهم بشكل فعال في تشكيل هوية الأمة، ومن ثم فإن سؤال الهوية يستدعي دائما مسألة التراث، وهو استدعاء يصبح ملحا عندما تصبح الهوية مهددة.. ولكن المسألة الجوهرية هنا هي: كيف ينبغي أن يستدعي سؤال الهوية؟

مسألة التراث

إن فهم معنى الهوية يمكن أن يلقي مزيدا من الضوء على القضية برمتها.. وهذا ما سنوضحه من خلال الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى

إن الهوية -كما أفهمها- هي مجموع السمات أو الملامح المتجانسة التي توحد وتجمع وجودا ما لتميزه عن غيره.. وكل وجود يصبح متعينا على هذا النحو في هوية ما، أي كموجود له هوية، سواء كان شيئا أو شخصا.. وكذلك الأمة تصبح وجودا حقيقيا لا هوية عندما تسودها حالة من التوحد والتجمع نابعة من الذات القومية التي يمكن خلقها مسار طويل من التاريخ والتراث الفاعل ساهم في تشكيل ملامحها.. فالهوية هنا أشبه بملامح الشخصية، وهذا يصدق على الأشخاص والأمم، بل يصدق حتى على الشاخصات والإبداعات الحضارية الكامنة (ولهذا السبب عينه، فإننا نصف معمارا ما بأنه بلا شخصية عندما يكون مفتقرا الى تلك الهوية).

الملاحظة الثانية

إذا كانت الهوية تقوم على التوحد والتجمع، فإن هذا التوحد يعني الاختلاف، وتلك مفارقة ظاهرية فحسب.. فحيث أن الهوية تعني الشخصية، والشخصية تعني الخصوصية، والخصوصية تعني الاختلاف، فإن الهوية Identity ...

الهوية هو أحد قوانين الفكر الأساسية، وكان العرب القدامى يسمون هذا القانون بقانون «الهو هو» بمعنى أن الشيء الذي نشير إليه في القياس يجب أن يكون هو هو نفسه، أي مستخدما بنفس المعنى كما يمكن عده وإحصاؤه.. فهذا القانون يفترض اذن أن الموجودات لها هوية ثابتة، في حين أن الواقع يشهد بأنه لا يوجد شيء يبقى على حاله، ولذلك يوصف هذا المنطق بأنه منطق صوري، أي يتعلق بصورة الفكر المجردة، والقانون هنا يظل ساريا على افتراض ثبات الهوية، ومن ثم فإنه يسري فحسب على مستوى الاستدلال الصوري فحسب.. وعلى نحو مشابه نجد أننا نطلق اسم الهوية على البطاقة التي تتيح أن يعتبرهم الأمر التعرف على هوية الشخص.. ولكن ما يتم التعرف عليه هنا هو بيانات الشخص التي تتحدد كاسمه أو سمات خارجية تدل على أن الشخص الواقعي هو هو الشخص المشار اليه في البطاقة، وليست هذه بالهوية الحقيقية للشخص في واقع الأمر، ولذلك أسميها بالهوية الاسمية.. والهوية في الحالتين هي الهوية غير الهامة، أعني الهوية الهرائية التي لا تقول لنا شيئا عن ماهية الأشياء.

الهوية اذن عملية ديناميكية تتشكل من خلالها الذات باستمرار، فهي ليست لها أصل سابق يقاس عليه، وليست شيئا يكون معطى على نحو مكتمل وجاهز سلفا، وإنما هي عملية تكوين من خلال ما قد كان، وما هو كائن، وما يمكن أن يكون (أي فيما نريد أن نكون عليه ونسعى اليه).. ونحن هنا يمكن أن نستدعي سارتر لإيضاح تلك المسألة.. فعند سارتر كل شيء أو موجود له فكرة محدودة سلفا بحيث يمكن القول إن ماهيته تسبق وجوده، ومن ثم فإنه يكون هو هو نفسه، أي أنه يبقى على حاله ولا يستطيع أن يتخطى أو يتجاوز ذاته، إلا الوجود البشري، فهو الوجود الوحيد الذي ليست له ماهية محددة سلفا، فهو يوجد أولا ...

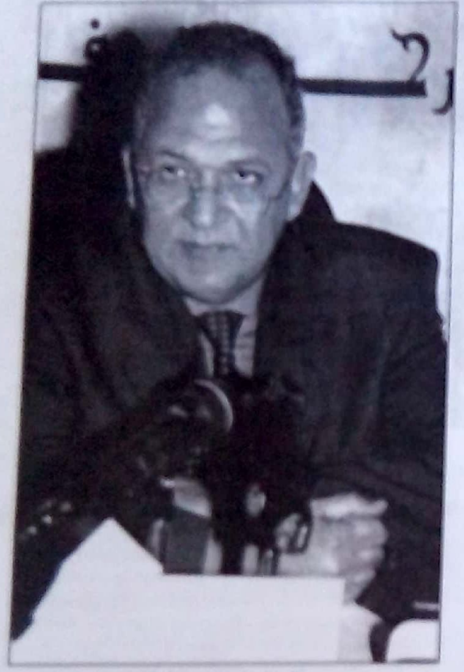

الدكتور/ سعيد توفيق

خلال إعادة قراءتها وفهمها.. فإحياء التراث بمنطق الذات القومية لا يعني إعادة نشر أو عرض التراث، بل إعادة قراءة نقدية للحظات التراث التاريخية بهدف الحفاظ عليها وإعلائها أو رفعها أثناء عملية تحولها بهدف تجاوزنا له (بالمعنى الهيجلي لمفهوم الرفع Aufhebung الذي يتضمن الإبقاء على شيء من الماضي في عملية تجاوزنا له، وبذلك يتم رفعه إلى حالة حضور).

ومن الغريب أن الذين يتشدقون بالعودة للتراث بمعناه الاستاتيكي هم الذين لا يعرفون التراث الإبداعي لحضاراتهم وغير عارفين به، ولكنهم أيضا غير عارفين بالابداعات الفكرية للحضارة الغربية، ولهذا أغرقوا ساحة الثقافة العربية بكتب صفراء عن التراث، وبكتابات سطحية، ودعاوى أيديولوجية دوجماطيقية تخلو من أي فهم أو قراءة نقدية.. فهم مثلا لا يعرفون الفارابي وابن ...

عصر النهضة الغربي بصيغة على الأفهام.. فكثيرا ما يخاطب الله تعالى المؤمنين بصيغة الأمر قائلا لهم: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»، فالله تعالى شأن يأمرهم بالاتباع منطق القوة في عصرهم، إذ جيش محمد -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يمتلك في غزوة الخندق سوى النبال.. أما في عصرنا هذا فإن القوة يصنعها العلم ومنتجات الإبداع البشري.. ولا شك أن هذه الطريقة في استدعاء الماضي ممثلا في التراث الديني والفكري ليست احياء للتراث وإنما اعدام له.. فطريقتنا في استدعاء التراث واعادة نشره دون تأويل هي طريقة لتحنيطه وتجفيفه.

إن هذا الفهم الخاطئ لعلاقة التراث بالهوية، ولمفهوم كل منها، هو أحد العوامل المسؤولة عن أزمة وضعنا التاريخي الذي نحياه الآن في ظل ...

معنى التراث وسؤال ا

بقلم أ. د. سعيد توفيق- جامعة الامارات:

ليس من قبيل الصدفة أن تناول موضوع التراث في طرحنا لسؤال أو مسألة الهوية، ذلك ان مفهوم التراث مقترن دائما بفهوم الهوية بحيث يمكننا القول إن هناك علاقة ماهوية بينهما لا سبيل إلى إنكارها، أعني أن هناك ارتباط وثيق بين معنى كل منهما.. ولكن السؤال الضروري الذي نحاول الإجابة عنه هو: على أي نحو نفهم -أو ينبغي لنا أن نفهم- طبيعة تلك العلاقة الماهوية بين المفهومين؟

ذلك هو السؤال. وهو سؤال يتطلب منا ان نبحث في المعاني أولا، إذ لا يمكن أن نفهم العلاقة الماهوية بين مفهومين إلا إذا فهمنا أولا معنى أو ماهية كل منها.. إن مثل هذا البحث في المعاني هو المهمة الأولى والحقيقة للفلسفة.. فالفلسفة -كما أفهمها- قي بحث في المعاني والمفاهيم التي يتركها العلم- بما في ذلك بلا توضيح، أو على الاقل يفترضها دون تمحيص وتحليل..

ومثل هذا البحث في المعاني ليس مجرد ضرورة معرفية أو ثقافية بالنسبة لنا كعرب ننتمي إلى سياق حضارة إسلامية، بل يكاد يكون مطلبا وجوديا حتميا في حياتنا الراهنة.. إذ ان احدى المشكلات الاساسية التي تعوق أية امكانية لتجاوز وضعنا التاريخي أو أزمتنا الحضارية الراهنة إنما تكمن في ذهنيتنا، أعني في تصورنا للمفاهيم الكبرى التي تشكل وعينا التاريخي والديني والعلمي والجمالي، ذلك اذا كنا نؤمن حقا بان التحولات الحضارية هي نتاج لتحولات في الوعي يسهم في بنائه فهمنا للمفاهيم التي تشكل اسلوب حياتنا ونظرتنا لوضعنا التاريخي ولمستقبلنا وعلاقتنا بالآخر، من قبيل التراث، الهوية، الدين، العلم.. إلخ. وأكاد أجزم أن هذا الفهم صانع أو على الاقل مشوش ومغلوط إذا كنا نتحدث على مستوى الوعي الثقافي السائد.

وربما يمكن القول أن هذا التشويش

ولنتوقف الان عن اي احكام، وندخل مباشرة في موضوعنا: ان نحاول الاقتراب من معنى التراث ومعني الهوية، لنقف على العلاقة بينهما.

ما التراث؟

يمكننا الاقتراب من معني التراث من خلال التعريف بالاستبعاد، اعني ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضي استبعاد كثير من التصورات الخاطئة التي تشيع في مستوى الفهم العامي للتراث: وأول هذه الأخطاء هو تحديد التراث في مستوى الموروث المادي الذي تركة لنا آباؤنا، سواء تمثل هذا الموروث في الاثر أو الاثريات أو حتى في النص المدون في زمن معين من الماضي. وحتى التراث المادي -الذي يفضل ان يسميه المؤرخون بالآثار- ليس شيئا ماديا خالصا، وإنما هو مفهوم بالدلالات الروحية الخصبة وإن غابت عند من يتلقونها من الاسلاف، فضلا عن كونه ارحب كثيرا مما يفهمه المؤرخون بالاثار،

فالتراث ليس هو كل الماضي، لانه هو فقط الماضي الذي انتقل وآل الينا ليحيا بنا وفينا.. وهو ليس لحظة معينة من الماضي، لانه نتاج للحظات تاريخية تراكمية تتفاعل وتتشكل من خلالها كل مضامين التراث.. وبهذا المعنى فإن التراث هو عملية انتقال وليس لحظة استاتيكية منغلقه على ذاتها.. وهذا المعنى يتضح حتى في دلالة الألفاظ المرتبطة بكلمة التراث أو المشتقة منها: فكلمة Tradition التي تعني أحيانا «التراث» مثلما تعني «التقليد» تدل على عملية انتقال التعاليم الشفاهية والكتابية عبر الماضي من جيل الى جيل كي تبقى ويعتد بها في الحاضر.. وكلمة «الوراثة» اصطلاح يدل على ذلك العلم الذي يبحث في انتقال صفات الكائن الحي من جيل الى آخر.

ومن هذا يمكن أن نخلص الى فهم التراث باعتباره عملية انتقال لموروثات او مضامين التراث، ومن ثم باعتباره متصل الموروث الثقافي والحضاري الذي يسهم بشكل فعال في تشكيل هوية الأمة.. وهنا ينبغي أن نحتاط بحيث لا نفهم من هذا أن التراث يكون مرادفا للهوية، لأن الهوية ليست شيئا جاهزا او مصنوعا من قبل، وهي لا تكمن فحسب فيما تحمله من متصل الماضي الموروث، وانما ايضا فيما نصنعه ونبدعه في حاضرنا، وفيما نتطلع اليه في مستقبلنا، فالحاضر والمستقبل مفترضان دائما الى جانب الماضي في مسالة صنع وتشكيل الهوية. وعلى الرغم من هذا التحفظ، فإن المقولة الأساسية التي بدأنا بها تظل صحيحة وسارية المفعول، وهي أن التراث يظل عاملا اساسيا (وان لم يكن الوحيد) يسهم بشكل فعال في تشكيل هوية الامة من خلال عملية انتقال متصل الموروث الثقافي. وهذا الأسلوب الذي وفقا له يعمل التراث على تشكيل شخصية الأمة يمكن أن يتضح لنا حينما نشبهه بالأسلوب الذي تتشكل وفقا له شخصية الفرد.. فما يحدث هنا على مستوى الأمة يشبه تماما ما يحدث على

شخصيته الحقيقية التي تتحول إلى مجرد مخزون أو رصيد غير موظف أو فعال.. ولقد صادفت الحضارة العربية الإسلامية نفس المازق ولاقت نفس التحدي بفعل الغزو الاستعماري بدءا من الحروب الصليبية وانتهاء بما يسمى بالغزو الثقافي، وهي تواجه الآن نفس التحدي بصورة أكثر ضراوة في عصرنا الراهن.. عصر العولمه.. غير انه من الضروري أن نلاحظ أن مثل هذا التحدي الخارجي ليس هو العنصر المسؤول أو العامل الوحيد الذي يهدد بانقطاع أو توقف التراث، بل ان الامر مرهون باستجابتنا أو موقفنا إزاء ذلك التهديد، وهي استجابة يمكن ان تحدث في صورتين سلبيتين ينبغي استبعادهما.. استجابة نكوصية تفهم التراث باعتباره لحظة تاريخية منقطعة من الماضي يمكن ان نستدعيها ونعيش فيها متعزلين عن الحاضر والمستقبل، أو استجابة تقطع حاضرنا بماضينا وتسعى إلى تبني نموذج حضاري آخر مغاير لذاتيتنا، ولم نسهم في صنعه.

وفي كلتا الحالتين يكون هناك عزل للتراث وتجميده باعتباره لحظة منفصلة عنا (عن واقعنا المعاش)، وكلتا الحالتين تؤديان إلى طمس الهوية.. إن هاتين الاستجابتين يمكن أن نلحظ بعض مظاهرهما حتى في مسلك بعض الشباب في جامعاتنا.. وأنا في ذهني هنا الجامعة المصرية.. فنحن نلاحظ بعض الشباب من المنتمين إلى تيار فكرى أو ديني سلبي يقومون بالتظاهرات التي يرفعون فيها شعارات سلفية تريد ان تستدعي لحظة معينة من الماضي وتبقي عليها في مظاهرها الشكلية، وعلى الطرف المقابل نجد شبابا يرقب المشهد مستغربا أو مستغربا يتعاطى وجبات ماكدونالدز ويرتدي الجينز وينظر إلى المتظاهرين باعتبارهم نوع آخر من البشر.. ونفس هاتين الاستجابتين نلحظهما حتى في الاختلاف الشديد في الذوق الفني بين بعض الشباب والاجيال السابقة

...ل الهوية

يكن مفهوما به، حتى وإن لم يتناوله على مستوى البحث والنظر الجاد.
ولا شك ان طارح هذا السؤال في ثقافتنا يفترض دائما مسالة التراث.. فالتراث –كما قلنا– هو متصل الموروث الثقافي الذي يسهم بشكل فعال في تشكيل هوية الأمة، ومن ثم فإن سؤال الهوية يستدعي دائما مسالة التراث، وهو استدعاء يصبح ملحا عندما تصبح الهوية مهددة.. ولكن المسالة الجوهرية هنا هي: كيف ينبغي ان يستدعى سؤال الهوية؟

مسالة التراث

إن فهم معنى الهوية يمكن أن يلقي مزيداً من الضوء على القضية برمتها.. وهذا ما سنوضحه من خلال الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى

إن الهوية –كما أفهمها– هي مجموع السمات أو الملامح المتجانسة التي توحد وتجمع وجودا ما لتميزه عن غيره.. وكل وجود يصبح متعينا على هذا النحو في هوية ما، اي كموجود له هوية، سواء كان شيئا أو شخصا.. وكذلك الامة تصبح وجودا حقيقيا ذا هوية عندما تسودها حالة من التوحد والتجمع نابعة من الذات القومية التي يكمن خلفها مسار طويل من التاريخ والتراث الفاعل ساهم في تشكيل ملامحها.. فالهوية هنا أشبه بملامح الشخصية، وهذا يصدق على الاشخاص والامم، بل يصدق حتى على النتاجات والإبداعات الحضارية للأمة (ولهذا السبب عينه، فإننا نصف معمارا ما بانه بلا شخصية عندما يكون مفتقرا الى تلك الهوية).

الملاحظة الثانية

إذا كانت الحوية تقوم على التوحد والتجمع، فإن هذا التوحد يعني الاختلاف، وتلك مفارقة ظاهرية فحسب.. فحيث أن الهوية تعني الشخصية، والشخصية تعني الخصوصية، والخصوصية تعني الاختلاف، فإن الهوية Identity

الهوية هو احد قوانين الفكر الأساسية، وكان العرب القدامى يسمون هذا القانون بقانوم «الهو هو» بمعنى أن الشيئ الذي نشير إلية في القياس يجب أن يكون هو هو نفسه، أى مستخدما بنفس المعنى كما يمكن عده وإحصاؤه.. فهذا القانون يفترض إذن أن الموجودات لها هوية ثابتة، في حين أن الواقع يشهد بانه لا يوجد شيئ يبقى على حاله، ولذلك يوصف هذا المنطق بإنه منطق صوري، أي يتعلق بصورة الفكر المجردة، والقانون هنا يظل ساريا على افتراض ثبات الهوية، ومن ثم فإنه يسري فحسب على مستوى الاستدلال الصوري فحسب.. وعلى نحو مشابه نجد أننا نطلق اسم الهوية على البطاقة التي تتيح لمن يعنيهم الامر التعرف على هوية الشخص.. ولكن ما يتم التعرف عليه هنا هو بيانات الشخص التي تتحدد كاسماء أو سمات خارجية تدل على أن الشخص الواقعي هو هو الشخص المشار إلية في البطاقة، وليست هذه بالهوية الحقيقية للشخص في واقع الامر، ولذلك أسميها بالهوية الاسمية.. والهوية في الحالتين هي الهوية غير الهامة، أعني الهوية البرانية التي لا تقول لنا شيئا عن ماهية الاشياء.

الهوية إذن عملية ديناميكية تتشكل من خلالها الذات باستمرار، فهي ليست لها أصل سابق يقاس عليه، وليست شيئا يكون معطى على نحو مكتمل وجاهز سلفا، وإنما هي عملية تكوين من خلال ما قد كان، وما هو كائن، وما يمكن ان يكون (أي فيما نريد أن نكون عليه ونسعى إليه).. ونحن هنا يمكن أن نستدعي سارتر لإضاءة تلك المسالة.. فعند سارتر كل شيئ أو موجود له فكرة محدودة سلفا بحيث يمكن القول إن ماهيته تسبق وجوده، ومن ثم فإنه يكون هو هو نفسه، أى أنه يبقى على حاله ولا يستطيع أن يتخطى أو يتجاوز ذاته، إلا الموجود البشري، فهو الموجود الوحيد الذي ليست له ماهية محددة سلفا، فهو يوجد أولا

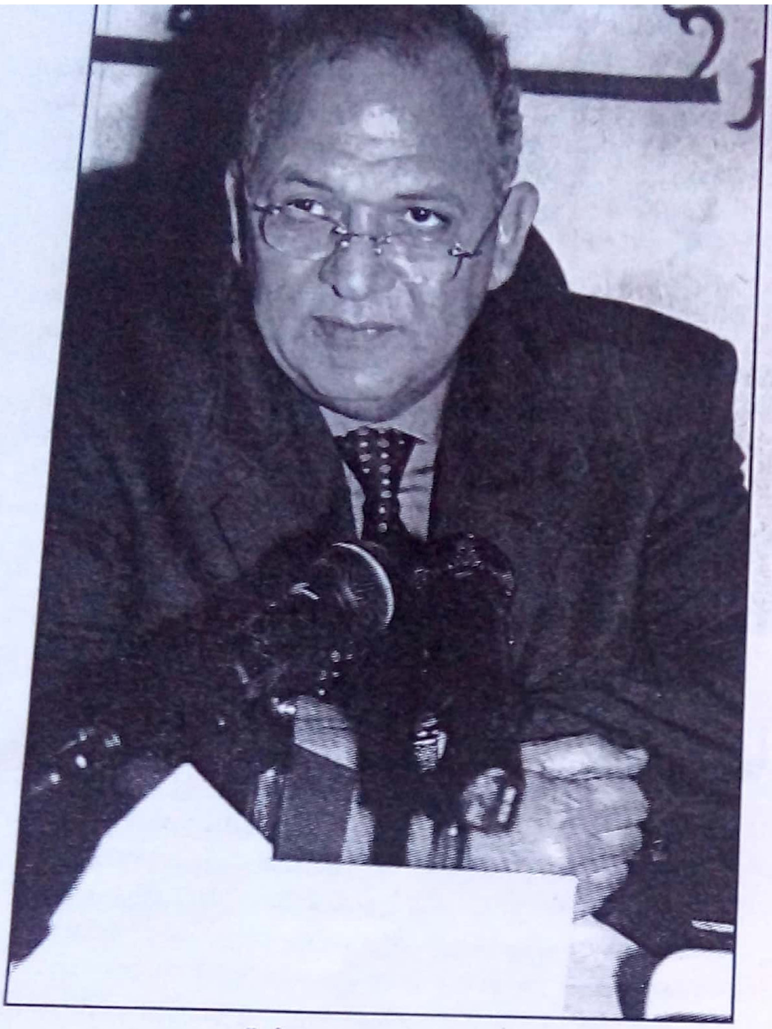

الدكتور/ سعيد توفيق

خلال إعادة قراءتها وفهمها.. فإحياء التراث كمنطلق للذات القومية لا يعني إعادة نشر أو عرض التراث، بل إعادة قراءة نقدية للحظات التراث التاريخية بهدف الحفاظ عليها وإعلائها أو رفعها أثناء عملية تحولنا بهدف تجاوزنا له (بالمعنى الهيجلي لمفهوم الرفع Aufhebung الذي يتضمن الابقاء على شيئ من الماضي في عملية تجاوزنا له، وبذلك يتم رفعه إلى حالة حضور).

ومن الغريب أن الذين يتشدقون بالعودة للتراث بمعناه الاستاتيكي هم الذين لا يقرأون التراث الابداعي لحضارتهم وغير عارفين به، ولكنهم أيضا غير عارفين بالابداعات الفكرية للحضارة الغربية، ولهذا أغرقوا ساحة الثقافة العربية بكتب صفراء عن التراث، وبكتابات صحفية، ودعاوى أيديولوجية دوجماطيقية تخلو من أي فهم أو قراءة نقدية.. فهم مثلا لا يعرفون الفارابي وابن

صريحة المغزى بسيطة على الأفهام.. فعندما يخاطب الله تعالى المؤمنين بصيغة الأمر قائلا لهم: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»، فإنه تعالى كان يأمرهم باتباع منطق القوة في عصرهم، لأن جيش محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يكن يمتلك في غزوة الخندق سوى النبال.. أما في عصرنا هذا فإن القوة يصنعها العلم ونتاجات الابداع البشري.. ولا شك أن هذه الطريقة في استدعاء الماضي ممثلا في التراث الديني وغيره ليست احياء للتراث وانما اعدام له.. فطريقتنا في استدعاء التراث واعادة نشره دون تاويل هي طريقة تحنيطه وتجفيفه.

إن هذا الفهم الخاطئ لعلاقة التراث بالهوية، والمفهوم كل منا، هو أحـ العوامل المسؤولة عن أزمة وضعـ التاريخي الذي نحياه الآن في ظـ

وربما يمكن القول أن هذا التشويش في المعاني يشوب إحيانا كثيرا مما يسعى بالمشروعات النهضوية التي انشغل بها المفكرون في ثقافتنا الراهنة، إذا لم تنشغل أغلب هذه المشروعات بتاسيس هذه المعاني، ومن ثم لم تقدم لنا رؤية واضحة مؤسسة على وعي بالمفاهيم التي تتناولها -فهي تنشغل انشغالا عميقا بالجداول حول الثنائيات التقليدية- من قبيل: التراث والتجديد، والاصالة والمعاصرة، والانا والآخر.. إلخ -انطلاقا من مواقف عقائدية أو انجازات سياسية حزبية أو أيديولوجية؛ ولذلك ظلت رؤيتها ضيقة الأفق، وغير فاعلة في مجال الواقع. فاغلب الذين ينطلقون في مشروعاتهم النهضوية من التراث، والذين يحاولون إحداث قطيعة من التراث لا يقولون لنا ما هو التراث أولا من خلال مناقشة حادة لأسئلة، وانما يفترضونه أو يفهمونه من خلال منظورهم الدوجماطيقي الذي يخدم مواقفهم المسبقة أو انحيازاتهم الضيقة. وعلى نحو مماثل، فإن تناول قضية «الأنا والآخر» يتخذ غالبا طابعا جداليا يقوم على افتراض مسبق بأن مفهومي الأنا والأخر متضادان أو متصارعان: فالأنا دائما تواجه الآخر وكانهما خصمان بالضرورة، وكان الأنا لا يمكن ان تواجه الاخر من خلال الحوار، ولا يمكن ان تفهم ذاتها إلا من خلال الآخر، ولا يمكن ان يكون لها وجود حقيقي إلا على أساس من وجود الآخر.

كثيرا مما يفهمه المؤرخون بالآثار، طالما أن الاعمال الفنية والنصوص الادبية تؤول إلينا ايضا في صورة عينية. غير ان هذا التراث المادي -مهما امتدت حدوده- لا يمثل إلا شكلا واحدا من اشكال التراث. فينبغي ان نستبعد مثل هذا التحديد في فهمنا للتراث.. ولا شك ان التحليل اللغوي نفسه لكلمة التراث يكشف عن دلالة أوسع بكثير من هذا التحديد لمعنى التراث الذي يجعله محصورا في اطار ضيق.. فالتراث من «الارث»، والارث شمل كل ما يرثه المرء عن ذويه أو قومه، فيقال ورث فلان مالا عن ابيه، ويقال ايضا ورث عنه المجد وغيره. فينبغي إذن أن نفهم التراث وفقا لدلالته الخصبة الرحبة التي تتسع لتشمل مضامين اخرى عديدة تتجاوز الموروث المادي بما في ذلك النص المدون: فالتراث يتسع ليشمل كل ما ينتمي الى الموروث الثقافي لشعب أو أمة ما بالمعنى الرحب لمفهوم الثقافة بوصفها اسلوب في الحياة ورؤية للعالم تتشكل من خلال القيم الدينية والروحية والأخلاقية والتقاليد الاجتماعية، ونتاجات الجهد الانساني من علم وفن وفلسفة أو فكر على وجه العموم.

والأمر الثاني الذي ينبغي استبعاده من فهمنا للتراث هو التصور الماضوي الاستاتيكي للتراث، اعني تصور التراث باعتباره كل الماضي المنصرم او باعتباره لحظة معينة من الماضي (اي فترة تاريخية معينة قائمة بذاتها ومنغلقة على ذاتها)..

الأمة يشبه تماما ما يحدث على مستوى الفرد، إن شخصية كل منا هي -بلا شك- نتاج لحظات معينة منتقاة من ماضيه، ساهمت في تشكيل خبراته ووعيه بالحياة والعالم والآخرين.. فليست كل لحظات الماضي ذات بال في هذا الشان بل إن بعضا منها قد لا نذكره على الاطلاق. وفي مقابل ذلك، نجد هناك لحظات هي اشبه بالعلامات التي وجهت مسارنا واسلوبنا في التفكير والرؤية والحياة، بحيث حفرت أخاديد عميقة في النفس يصعب محوها أو تجاهلها، لأنها ببساطة جزء من شخصيتنا التي تشكلت على نحو تراكمي من خلال هذه اللحظات.

والأمر الثالث الذي ينبغي أن نستبعده في فهمنا للتراث هو تصور عملية انتقال التراث واتصاله على إنها عملية تحدث دائما بشكل آلي تلقائي، وهذا أبعد ما يكون عن الصواب، لأن التراث قد يصادف لحظات توقف او انقطاع يمكن أن تحدث بفعل عوامل تاريخية عديدة تؤدي الى مرحلة تدهور أو نكوص في الحضارة التي ينتمي اليها هذا التراث. ولا شك أن تدهور الحضارات يقترن دائما باشكال من الغزو الاستعماري والثقافي الذي يسعى دائما الى طمس الهوية من خلال طمس التراث وانقطاعه، وهو ما يمكن أن يؤدي الى حدوث اغتراب حقيقي شبيه تماما بالاغتراب الذي يستشعره المرء حينما يحيا باسلوب مغاير لطبيعته، يعزله عن

بين بعض الشباب والإجيال السابقة عليهم، فما نحبه ونتذوقه ونحسن فهمه لا يلقى عندهم اي تقدير جمالي، لأن وعيهم الجمالي قد اصبح مستغربا.

سؤال الهوية

ربما أمكن القول إن هناك اسئلة عديدة للهوية، لا سؤال واحد.. ومع ذلك فإن احد الاسئلة الاساسية للهوية هو: ما الذي يؤسس الهوية؟ ولكن هذا السؤال يتخذ في ثقافتنا الراهنة منظورا خاصا، ويصبح محددا في الصيغة التالية: ما الذي يؤسس الهوية بوصفها هوية أمة؟ ولا شك ان صيغة السؤال على هذا النحو ليست مطروحة في ثقافات العالم المتحضرة بنفس القدر والإلحاح الذي نجده في ثفاقتنا.. وهذا امر مفهوم له ما يبرره.. فالأمة التي تواصل حضورها التاريخي وفاعليتها الحضارية في العالم، لا تسال أو تتساءل عن هويتها، لأن هذه الهوية متحققة بالفعل من خلال ذلك الحضور وتلك الفاعليه، ومن ثم فإن السؤال هنا لا يطرح إلا لماما، ومن باب الاختلاف أو الجدل الفلسفي حول قضية جزئية هنا أو هناك.. أما في ثقافتنا، فإن سؤال الهوية يصبح سؤالا عن وجودنا نفسه باعتباره وجود مهدد بالزوال أو التفسخ والانحلال، وهذا هو حال كل امة تواجه هذا المصير في عصرنا الراهن أو واجهته من قبل.. ولذلك، فلا اظن ان واحدا من مثقفينا لم يطرح هذا السؤال على نفسه، ولم

الاختلاف، فإن الهوية Identity تكمن دائما في الاختلاف Difference. ومن هنا يتبدى لنا سذاجة ذلك الراي الذي يفهم العولمة على انها نظام جديد يسعى إلى توحيد البشر في هوية واحدة على كافة الاصعدة والمسارات، ليس فقط لأن هذا الفهم غافل عن حقيقة العولمة باعتبارها نظاما جديدا يسعى إلى تجاوز الأمم والقوميات، بل تقويضها، ومن ثم تقويض مفهوم الهوية ذاتها (أعني هوية الاخر الذي لم يصنع العولمة ولا يشارك في صنع آلياتها)، وإنما ايضا لان هذا الراي غافل عن ان مفهوم الهوية الواحدة مفهوم متناقض ذاتيا، طالما ان الهوية تكمن دائما في الاختلاف.. فالهوية هى حالة توحد الذات، لا مع الاخر ولا ضد الاخر، وإنما إزاء الاخر، وتاكيد لخصوصية الذات واستقلالها عن الآخر وهذا المعنى يصدق -كما رأينا- على الفرد مثلما يصدق على الامة (ولذلك نقول على الشخص الذي يتماهي مع شخصية الاخرين انه شخص بلا هوية، أعني أننا لا نعتبره شخصا حقيقيا).

الملاحظة الثالثة

الأمر الثالث الذي ينبغي أن نلاحظه في فهمنا للهوية هو أن الهوية أيضا ليست شيئا ثابتا أو سكونيا، فالهوية بهذا المعنى الاخير هى الهوية المنطقية والاسمية، وتلك هى الهوية بمعناها البراني، أى الهوية غير الهامة وغير الجوهرية.. ففي المنطق الأرسطي نجد أن قانون

بين بعض الشباب والإجيال السابقة عليهم، فما نحبه ونتذوقه ونحسن فهمه لايلقى عندهم اي تقدير جمالي، لأن وعيهم الجمالي قد أصبح مستغربا.

سؤال الهوية

ربما أمكن القول إن هناك اسئلة عديدة للهوية، لا سؤال واجد.. ومع ذلك فإن احد الاسئلة الاساسية للهوية هو: ما الذي يؤسس الهوية؟ ولكن هذا السؤال يتخذ في ثقافتنا الراهنة منظورا خاصا، ويصبح محددا في الصيغة التالية: ما الذي يؤسس الهوية بوصفها هوية أمة؟ ولا شك ان صيغة السؤال على هذا النحو ليست مطروحة في ثقاقات العالم المتحضرة بنفس القدر والإلحاح الذي نجده في ثفاقتنا.. وهذا امر مفهوم له ما يبرره.. فالأمة التي تواصل حضورها التاريخي وفاعليتها الحضارية في العالم، لا تسال أو تتساءل عن هويتها، لأن هذه الهوية متحققة بالفعل من خلال ذلك الحضور وتلك الفاعليه، ومن ثم فإن السؤال هنا لا يطرح إلا لماما، ومن باب الاختلاف أو الجدل الفلسفي حول قضية جزئية هنا أو هناك.. أما في ثقافتنا، فإن سؤال الهوية يصبح سؤالا عن وجودنا نفسه باعتباره وجود مهدد بالزوال أو التفسخ والانحلال، وهذا هو حال كل امة تواجه هذا المصير في عصرنا الراهن أو واجهته من قبل.. ولذلك، فلا اظن ان واحدا من مثقفينا لم يطرح هذا السؤال على نفسه، ولم

الخصوصية، والخصوصية تعني الاختلاف، فإن الهوية Identity تكمن دائما في الاختلاف Differ-ence. ومن هنا يتبدى لنا سذاجة ذلك الرأي الذي يفهم العولمة على انها نظام جديد يسعى إلى توحيد البشر في هوية واحدة على كافة الاصعدة والمسارات، ليس فقط لأن هذا الفهم غافل عن حقيقة العولمة باعتبارها نظاما جديدا يسعى إلى تجاوز الأمم والقوميات، بل تقويضها، ومن ثم تقويض مفهوم الهوية ذاتها (أعني هوية الاخر الذي لم يصنع العولمة ولا يشارك في صنع آلياتها)، وإنما ايضا لان هذا الرأي غافل عن ان مفهوم الهوية الواحدة مفهوم متناقض ذاتيا، طالما ان الهوية تكمن دائما في الاختلاف.. فالهوية هى حالة توحد الذات، لا مع الاخر ولا ضد الاخر، وإنما إزاء الاخر، وتاكيد لخصوصية الذات واستقلالها عن الآخر وهذا المعنى يصدق -كما رأينا- على الفرد مثلما يصدق على الامة (ولذلك نقول على الشخص الذي يتماهي مع شخصية الاخرين انه شخص بلا هوية، أعني أننا لا نعتبره شخصا حقيقيا).

الملاحظة الثالثة

الأمر الثالث الذي ينبغي أن نلاحظه في فهمنا للهوية هو أن الهوية أيضا ليست شيئا ثابتا أو سكونيا، فالهوية بهذا المعنى الاخير هى الهوية المنطقية والاسمية، وتلك هى الهوية بمعناها البراني، أى الهوية غير الهامة وغير الجوهرية.. ففي المنطق الأرسطي نجد أن قانون

الموجود الوحيد الذي ليست له ماهية محددة سلفا، فهو يوجد أولا ثم يكون بعد ذلك ما يكون، ومن ثم فإنه يستطيع أو يتجاوز ذاته باستمرار.. ولا شك ان انكار هذه الحقيقة البسيطة هو نوع من الهروب والتنصل من المسؤولية الوجودية الملقاة على عاتق كل منا كموجودات بشرية.. حقا إن سارتر يفهم الفعل الوجودي هنا على مستوى التجربة الوجودية الفردية، ولكننا نستطيع أن نفهمه على مستوى التجربة الاجتماعية، ونوظفه في سياق أعم من السياق الذي يوظفه فيه سارتر، باعتبار أن تجربة الشعوب والأمم هى أيضا اختيار ومسؤولية.

ولكن في كلتا الحالتين فإن النتيجة واحدة وهى: أن الهوية شيئ يصنع باستمرار.

الملاحظة الرابعة

والأمر الاخير الذي ينبغي أن نلاحظه، والذي يمكن أن يلقي الضوء في نفس الوقت على سؤالنا الاصلي عن الكيفية التي ينبغي بها ان يستدعي سؤال الهوية مسالة التراث، هذا الامر الذي ينبغي أن نضعه نصب أعيننا دائما هو أن التراث ليس مرادفا للهوية، فإذا كانت الهوية -كما بينا من قبل- هي شيئ يصنع باستمرار، فإن هذا يعني أن هويتنا لا تكمن بكليتها ولا هي متحددة بشكل مطلق في تراثنا، والا كنا أشبه بكائنات أثرية أو متحفية.. لأنه حتى معطيات التراث نفسه تكون قابلة للتحول والرفع من

تخلو من اي فهم او قراءة نقدية.. فهم مثلا لا يعرفون الفاربي وابن سينا ولا ابن رشد ومناظراته مع الغزالي ولا السيرافي مع بشر بن متى، ولا كتابات التوحيد التنويرية وغيرهم.

ولا شك أن هناك ثوابت من التراث ينبغي أن تبقى متاصلة في الهوية، ومن ثم فلا يمكن تصور أية إمكانية أو مشروعية لإسقاط الدين أو العروبة في ثقافتنا الباحثة عن تاصيل مفهوم الهوية.. ولكن السؤال الجوهري هو: ما الذي يبقى ثابتا هنا؟ إن الدين، أعني النص الديني ثابت، أما التراث الديني، أعني الوعي الديني والكتابات التي تفسر النص الديني، فليست شيئا ثابتا، طالما أن دور التاويل هنا ينبغي أن يظل فاعلا باستمرار ليسقط ما ينبغي أن يسقطه من هذه الكتابات، ويأول ما يحتاج منها إلى تأويل ليرفع النص الى حالة حضور دائم ويجعله قابلا للتطبيق باستمرار على عصرنا الراهن.. وأيد هنا أن أسوق المثال التالي لعله يضيء ما أريد قوله.. فنحن كثيرا ما نرى شعارات معينة ترفعها التظاهرات في الجامعات والشوارع العربية التي ترددها هذه التظاهرات هي «خيبر خيبر يا يهود .. جيش محمد سوف يعود».

إن مثل هذه الشعارات تعبر عن افلاس يريد أن يستدعي مواقف ولحظات معينة من الماضي عبر وعي سكوني غير قادر على التأويل، فالذين يرددون مثل هذه الشعارات عاجزون حتى عن تاويل آية قرآنية

التاريخي الذي نحياه الآن في ظل العولمة، وفي ظل قوة مهيمنة تهدد بسحق الهوية.. وإن ما يسمى الآن بالصحوة الاسلامية، وما يرتبط بها من حركات أصولية، إنما هو رد فعل نكوصي سلبي على نظام عالمي مهيمن يحاول ان يتخلل ويخترق كل اشكال حياتنا بدءا مما ناكله، الى الادوات التي نستخدمها يوميا، الى الثقافة التي نحيا بها والفن الذي نتعاطاه والذي يشكل احساسنا بالحياة نفسها.. وفي ظل هذا التهديد الذي اصبح سافرا ومعلنا يلجأ المذعور الى البحث عن هوية توحده، وتجد له مكانا آمنا وأليفا في مواجهة هذا النظام الجديد الذي يكرس التشرذم لا التوحد.. يلجأ المذعور الى البحث عن الهوية في التراث، ويفتش في التراث عن شيء يظنه ثابتا، فيتشبث بالتراث الديني دون تأويل أو بالعرق الذي لا يحتاج اصلا لتأويل.. وربما يفسر هذا لنا الحركات الدينية الاصولية والحركات الانفصالية المتزايدة في العالم الاسلامي.. فالتراث هنا تم اختزاله الى الدين، والدين تم اختزاله الى التراث الديني، اي الى لحظة معينة ثابتة من التفسير الديني الماضوي، والبحث عن الهوية اصبح يشبه البحث عن ملاذ آمن يشبه الماضي.. بل يشبه صورة الماضي، وبذلك يتم اسقاط الحاضر والمستقبل، وحتى الماضي لم يعد قابلا لأن يحيا في الحاضر.. وهذا اصل ضياع معنى التراث والهوية معاً.

CamScanner